

دروس لعالم ما بعد الوباء 10



هذا كتاب لا يتعلق بالوباء؛ بل عن العالم الذي ظهر نتيجة للوباء، والأهم من ذلك، استجاباتنا له كما يقول الإعلامي الأمريكي فريد زكريا، ويضيف: «يمكن أن يكون لأي صدمة كبيرة تأثيرات متنوعة، اعتماداً على حالة العالم في ذلك الوقت، وكيفية تفاعل البشر مع الخوف أو الإنكار أو التكيف. في حالة فيروس كورونا المستجد، تم فرض التأثير من خلال حقيقة أن العالم مترابط بشدة، وأن معظم البلدان لم تكن مستعدة للوباء، وأنه في أعقابها، أغلق العديد منها، بما في ذلك أغنى دول العالم مع اقتراب مجتمعاتهم واقتصاداتهم من التدهور الكبير بطريقة غير مسبقة في تاريخ البشرية. يدور هذا الكتاب حول «عالم ما بعد الجائحة» ليس لأن الفيروس التاجي وراءنا، ولكن لأننا تجاوزنا عتبة حرجة. لقد نجا كل شخص على قيد الحياة تقريباً من الإصابة بالطاعون، حتى الآن. لكننا الآن نعرف كيف يبدو الوباء. لقد رأينا تحديات وتكاليف الاستجابة له. يمكن أن تستمر جائحة، ولكن حتى إذا تم القضاء عليها، فمن شبه المؤكد حدوث «جائحات جديدة للأمراض أخرى في المستقبل. بهذه المعرفة والخبرة، نعيش الآن في حقبة جديدة: ما بعد الجائحة».

يلخص المؤلف الكتاب في عشرة دروس؛ هي: (1) ربط حزام الأمان. (2) ما يهم ليس الكم في الحكومة بل النوع. (3) الأسواق ليست كافية. (4) يجب أن يستمع الأشخاص إلى الخبراء – وعلى الخبراء الاستماع إلى الناس. (5) الحياة رقمية. (6) أرسطو على حق – نحن حيوانات اجتماعية. (7) سوف تتفاهم اللامساواة. (8) العولمة لم تمت. (9) العالم يصبح ثنائي القطب. (10) أحياناً يكون أعظم الواقعيين هم المثاليون.

تداعيات عامة

ما هي بالضبط عواقب هذا الوباء؟ اقترح البعض أنه سيثبت أنه الحدث المفصلي للتاريخ الحديث، وهي لحظة تغير مسارها إلى الأبد. يعتقد البعض الآخر أنه بعد اللقاح، سنعود بسرعة إلى العمل كالمعتاد. لا يزال آخرون يجادلون بأن الوباء لن يعيد تشكيل التاريخ بقدر ما سيصنعه. يبدو أن هذا السيناريو الأخير هو النتيجة الأكثر ترجيحاً، كما يفترض أن يكون ما قاله لينين ذات مرة، «هناك عقود لم يحدث فيها شيء، ثم هناك أسابيع تحدث فيها عقود». سيكون عالم ما بعد الوباء من جوانب عديدة، نسخة سريعة من العالم الذي عرفناه. ولكن عندما تصبح الحياة على قدم وساق، فلن تستمر الأحداث بشكل طبيعي، ويمكن أن تكون العواقب مدمرة؛ بل ومميتة. في الثلاثينات من القرن الماضي، كانت العديد من البلدان النامية تقوم بالتحديث بخطى ثابتة؛ حيث تنقل الناس من الزراعة إلى الصناعة. قرر الاتحاد السوفييتي تسريع هذه العملية بالقوة. وقد أدى هذا القرار، وهو نظام جماعي للزراعة، إلى المجاعة و«تصفية» ملايين المزارعين، وتصلب الديكتاتورية، وتشويه المجتمع السوفييتي. ستكون الحياة بعد الجائحة مختلفة بالنسبة للبلدان والشركات، وخاصة الأفراد. حتى لو عاد الاقتصاد والسياسة إلى طبيعتهما، فإن البشر لن يعودوا كما كانوا. سيكونون قد مروا بتجربة غير عادية وصعبة ولديهم إحساس بالفرصة المكتشفة حديثاً والتي تم الحصول عليها بشق الأنفس.

كان المفترض أن نتوقع هذا. قد يكون فيروس كورونا جديداً، ولكن الأوبئة ليست كذلك، وهي مذكورة في الأدب اليوناني القديم. كان الطاعون الدبلي الأكثر انتشاراً حتى الآن، والذي بدأ في آسيا الوسطى في ثلاثينات القرن الثالث عشر وانتشر إلى أوروبا في العقد التالي. اتهم أحد مؤرخي العصور الوسطى المغول بإدخال المرض إلى القارة من خلال إطلاق جنث موبوءة بالطاعون في قلعة جنوه بواسطة المنجنيق – وهو سلاح بيولوجي استخدم في وقت مبكر. على الأرجح، انتشر الطاعون من خلال التجارة العالمية عبر القوافل والسفن التي تنقل البضائع من الشرق إلى الموانئ الرئيسية مثل ميسينا في صقلية ومرسيليا في فرنسا. كان للطاعون الدبلي آثاره الزلزالية. يعتقد العلماء أنه مع موت الكثيرين، انقلبت اقتصادات ذلك الوقت رأساً على عقب. يوضح والتر شيديل أن العمالة أصبحت نادرة وكانت هناك وفرة في الأراضي، وبالتالي ارتفعت الأجور وانخفضت الإيجارات. فاز العمال بمزيد من القدرة على المساومة وخسر

النبلاء. ذبلت العبودية في كثير من دول أوروبا الغربية. بالطبع، اختلف التأثير من بلد إلى آخر بناءً على الهياكل الاقتصادية والسياسية لكل فرد. ارتفع عدم المساواة في الواقع في بعض الأماكن التي اتخذت إجراءات قمعية. على سبيل المثال، استخدم الملوك النبلاء في أوروبا الشرقية البؤس والفوضى لإحكام قبضتهم وفرض القنانة لأول مرة. وأبعد من هذه الآثار المادية، أدى الطاعون إلى ثورة فكرية

دور الأوبئة في الحروب

انجذب المؤرخ ويليام ماكنيل الذي كتب المسح الأساسي «الطاعون والشعوب» إلى علم الأوبئة، لأنه كان يحاول تفسير لغز: لماذا تمكنت أعداد صغيرة من الجنود الأوروبيين من الانتصار بسرعة وتحويل دين ملايين الأشخاص في أمريكا اللاتينية؟ على سبيل المثال، بدأ المستكشف الإسباني هيرنان كورتيس ب 600 رجل يواجهون إمبراطورية آزتك يبلغ تعدادها الملايين. وجد ماكنيل أن الإجابة تشمل الأوبئة. لم يجلب الإسبان معهم أسلحة متطورة فحسب؛ بل جلبوا معهم أيضاً أمراضاً مثل الجدري، التي صنعوا مناعة ضدها إلا أن السكان الأصليين لم تكن لديهم تلك المناعة. إن تقديرات عدد القتلى في حالات التفشي التي تلت ذلك مذهلة؛ حيث تراوح من 30٪ من السكان في البداية إلى 60.6 إلى 90٪ على مدار القرن السادس عشر – جميعاً، عشرات الملايين من الناس، يتخيل ماكنيل الآثار النفسية المترتبة على المرض الذي قتل الهنود فقط وترك الإسبان من دون أن يصابوا بأذى. أحد الاستنتاجات التي خلص إليها السكان الأصليون، كما يتكهن، هي أن الأجانب كانوا يعبدون آلهة قوية. قد يساعد ذلك في تفسير سبب استسلام الكثير منهم للسيطرة الإسبانية وتحولهم إلى المسيحية

إن الوباء الذي لا يزال عالماً في ذاكرتنا هو الإنفلونزا الإسبانية، الذي ضرب العالم في خضم الحرب العالمية الأولى وقتل نحو 50 مليون شخص، أي أكثر من ضعف عدد الذين ماتوا في القتال. تقدم العلم بشكل هائل منذ أوائل القرن العشرين. في ذلك الوقت، لم يكن أحد قد شاهد أي فيروس على الإطلاق، ناهيك عن معرفة كيفية علاج هذه العدوى الجديدة: لم يتم اختراع المجاهر الإلكترونية، ولم يتم اختراع الأدوية المضادة للفيروسات. ومع ذلك، لا تزال أهم ثلاث إرشادات من السلطات الصحية في ذلك الوقت – التباعد الاجتماعي والكمامات وغسل اليدين – ثلاثة من أهم أربع آليات مستخدمة اليوم لإبطاء انتشار فيروس كورونا، حتى يتم تطوير لقاح. الآلية الرابعة هي الاختبار المنتظم، وهي الإضافة الحديثة الوحيدة

في العقود الأخيرة، انتشر مرض السارس وفيروس كورونا وإنفلونزا الطيور وإنفلونزا الخنازير والإيبولا بسرعة وعلى نطاق واسع، ما دفع العديد من الخبراء إلى التحذير من احتمال مواجهة وباء عالمي حقيقي قريباً. في عام 1994، فصل كتاب ريتشارد بريستون الأكثر مبيعاً (المنطقة الساخنة) بتفصيل أصول فيروس الإيبولا. فيلم «العدوى» للعام 2011، المستوحى من وباء السارس في عام 2002، ووباء إنفلونزا الخنازير عام 2009، تخيل فيروساً أودى بحياة 26 مليون شخص حول العالم. في عام 2015، أعطى بيل جيتس تحذيراً خلال حديثه في مؤتمر «تيد»، مفاده أنه إذا قتل أي شيء أكثر من 10 ملايين شخص في العقود القليلة المقبلة، فمن المرجح أن يكون فيروساً شديداً العدوى. في عام 2017، دق ناقوس الخطر بصوت أعلى، وتوقع في خطاب ألقاه في مؤتمر أمني في ميونخ، أكد فيه أن هناك فرصة معقولة لظهور مثل هذا الوباء في السنوات الـ 10 إلى الـ 15 القادمة

بحلول ذلك الوقت، لم يكن الأمر يتطلب الكثير من التبصر لتخيل جائحة، والدفاع عن استثمار المزيد من الوقت والموارد والطاقة من أجل وقفها. في يونيو/حزيران 2017، عندما اقترح الرئيس دونالد ترامب تخفيضات في الميزانية في الوكالات الرئيسية التي تعاملت مع الصحة العامة والأمراض، خصصت جزءاً من برنامجي على شبكة «سي إن إن»

للموضوع. قلت فيه: أحد أكبر التهديدات التي تواجه الولايات المتحدة ليس كبيراً على الإطلاق. في الواقع، إنه صغير، مجهرى، أصغر بآلاف المرات من رأس الدبوس. مسببات الأمراض القاتلة، سواء من صنع الإنسان أو الطبيعة، يمكن أن تؤدي إلى أزمة صحية عالمية، والولايات المتحدة غير مستعدة تماماً للتعامل معها.. يحتاج المرء فقط إلى النظر إلى الورا 100 عام حتى عام 1918، عندما قتلت جائحة الإنفلونزا الإسبانية ما يقدر بـ 50 مليون شخص حول العالم. من نواح كثيرة، نحن أكثر عرضة للخطر اليوم. المدن المكتظة، والحروب، والكوارث الطبيعية، والسفر الجوي الدولي تعني أن فيروساً قاتلاً ينتشر في قرية صغيرة في إفريقيا يمكن أن ينتقل تقريباً في أي مكان في العالم، بما في ذلك الولايات المتحدة، في غضون 24 ساعة.. يتقاطع الأمن البيولوجي مع الأوبئة العالمية ويتجاوزان كل الحدود الوطنية. عندما تأتي الأزمة، نتمنى أن يكون لدينا المزيد من التمويل والمزيد من التعاون العالمي. ولكن بعد ذلك، سيكون الوقت قد فات. كان الوقت قد فات. لقد تلقينا تحذيراً من الاستعداد لمواجهة كوفيد-19، ولكن بخلاف الأخطار المحددة للوباء، كان ينبغي أن ندرك الاحتمال العام لصدمة نظامنا

صدمة النظام العالمي

بعد الحرب الباردة، استقر العالم في نظام دولي جديد يتميز بثلاث قوى، واحدة جيوسياسية، وأخرى اقتصادية، وثالثة قوة أمريكية تكنولوجية مع الأسواق الحرة، وثورة المعلومات. بدا أن الجميع يعمل معاً لخلق عالم أكثر انفتاحاً وازدهاراً. لكنه كان لا يزال عالماً مملوءاً بالأزمات التي سيخرج بعضها عن السيطرة. حروب البلقان، والانهيار المالي الآسيوي، وهجمات 11 سبتمبر، والأزمة المالية العالمية في 2008، والآن كوفيد-19، على الرغم من أنها جمعاً مختلفة، إلا أنها تشترك في شيء مهم. كلها صدمات غير متماثلة، أشياء تبدأ صغيرة ولكنها تنتهي بإطلاق موجات زلزالية مرعبة حول العالم. هذا ينطبق بشكل خاص على ثلاث صدمات عالمية سيتم الحكم عليها على أنها الأكثر ديمومة: تفجيرات 11 سبتمبر، والانهيار الاقتصادي في عام 2008، وفيروس كورونا الحالي

تحولت الأزمات العالمية إلى شيء صغير يبدو تافهاً. فكر في هجمات الحادي عشر من سبتمبر التي شنها 19 شاباً مسلحاً بأبسط وأقسى الأسلحة، وسكاكين صغيرة، لا تختلف كثيراً عن تلك المستخدمة في العصر البرونزي قبل 4000 عام، لكن هؤلاء الـ 19 رجلاً أطلقوا موجة من الحروب والعمليات الاستخباراتية والثورات والقمع حول العالم، أو مثلاً تأمل أصول الأزمة المالية العالمية، أحد المنتجات المالية الغامضة، «مقايضة التخلف عن السداد الائتماني»، وهو نوع من بوليصة التأمين في الأغلب على الرهون العقارية، تم تجميعها وإعادة تجميعها، وتقطيعها إلى شرائح ومكعبات، وبيعها وإعادة بيعها، حتى أصبحت سوقاً بقيمة 45 تريليون دولار، أكبر بثلاث مرات من الاقتصاد الأمريكي وثلاثة أرباع حجم الاقتصاد العالمي بأكمله. وعندما انهار هذا السوق، أخذ معه الاقتصاد العالمي إلى الهاوية، وفي الوقت المناسب، أطلق موجة من الشعبية. بدون مقايضات التخلف عن السداد، ربما لما جاء رئيس مثل دونالد ترامب

الصدمة الثالثة هي التي نعيشها الآن. قد تكون أكبرهم جميعاً، وهي بالتأكيد الأكثر عالمية. ما بدأ كمشكلة رعاية صحية في الصين سرعان ما تحول إلى جائحة عالمي. لكن هذه كانت البداية فقط. أدت الأزمة الطبية إلى إغلاق متزامن لجميع الأعمال التجارية في جميع أنحاء العالم. مما أدى إلى شلل كبير، توقف الاقتصاد نفسه. وفقاً لبعض المقاييس، فإن الضرر الاقتصادي الناجم عن هذا الوباء ينافس بالفعل الضرر الاقتصادي للكساد الكبير. وستظهر العواقب السياسية خلال السنوات القادمة بطرق مختلفة في بلدان مختلفة. قد تستمر العواقب الاجتماعية والنفسية للخوف والعزلة والافتقار إلى الهدف لفترة أطول. لفيروس كوفيد-19 تأثيرات عميقة ودائمة على كل واحد منا، وهي تداعيات لا يمكننا استيعابها بالكامل

وفي حالة هذا الوباء، ندرك جميعاً الآن كيف أن جسيماً فيروسياً صغيراً انتقل من خفاش في مقاطعة هوبي الصينية، قد جعل العالم يجثو على ركبتيه. يمكن أن يكون للتغيرات الصغيرة عواقب وخيمة، ففي شبكات الطاقة أو شبكات الكمبيوتر، إذا انكسر عنصر صغير ثم قام بتحويل حملة إلى عنصر آخر، والذي ينكسر بعد ذلك، يمكن أن ينتج تفاعل متسلسل يزداد حجمه، مثل تموج يتحول إلى موجة طافرة. يطلق عليه «الفسل المتتالي». يمكن لخلل برنامج واحد أو محول مكسور إيقاف تشغيل النظام بأكمله. نحن بحاجة إلى فهم هذا النظام، بمعنى آخر، فهم العالم الذي نعيش فيه من أجل رؤية العالم الناشئ ما بعد الوباء

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024